نشریه‌ی ادبیات پایداری
دانشکده‌ی ادبیات و علوم انسانی
دانشگاه شهید باهنر کرمان
سال اول، شماره‌ی دوم، بهار ۱۳۸۹

مظاهر أدب المقاومة فی شعر نزار قبانی* (علمی-پژوهشی)

دکتر جواد سعدون زاده
استادیار دانشگاه شهید چمران اهواز

چکیده

این مقاله درباره‌ی شاعر پرآوازه‌ی معاصر سوری، نزار قبانی، نوشته شده است. رویکرد این نوشتار پیرامون ادب مقاومت می باشد. جلوه‌های ادب پایداری به قرار ذیل از مجموعه‌ی اشعار سیاسی این سخن سرا مورد نقد و بررسی قرار گرفته است:

وطن دوستی، فلسطین، قدس، تعهد ملّی و محبّت کشورهای عربی، بیروت، گذشته‌ی افتخارآمیز، حکمران و ملّت، حکمران عرب و مسأله‌ی فلسطین، فرزندان سنگ، کودک عرب امید آینده، نیروهای امنیتی و بازجویی، آزادی و مبارزه، سلطه‌ی آمریکا، عدم آزادی اندیشه.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

واژگان کلیدی

نزارقبانی، ادب مقاومت، شعر.

---

* تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۸۸/۱۰/۲۲ تاریخ پذیرش نهایی مقاله: ۱۳۸۹/۲/۲۵
نشانی پست الکترونیک نویسنده: sadoun_zadeh@msrt.ir

۱- المقـــدمـــة

لقد مرّ علی شعرنزار قبانی أطـوار مـن النّـضوح و التطـور، اسـتمدت مـن الأحـداث الكثيرة و المتنوعة الّـتی طرأت علـی حيـاة هـذا الـشاعر الكبيـر. و قـد انطبعـت بـصمات هـذه الأمـور علـی صـفحات فكـره و مـشاعره و خيالـه كمـا تجلـّت و تبلـورت بتمـام حقيقتها فـی قـصائده و مقطوعاتـه، تحمـل فـی طيّاتهـا تفـسيراً كـاملاً و وافيـاً لرغبـات الشاعر و نزعاته فی شتّی المجالات.

و لا شـک أنّ الطـور النـضالی و الثـورى الـّذى ظهـر فـی إبداعـه الـشعرى، هـو حصيلة تطور نفسی خلقتـه يـد الأحـداث الرهيبـة الـّتی حلـّت بواقـع المـواطن العربـی ممّا هزّ شاعرنا من الأعمـاق و فجّـر فـی كيانـه شـلاّلاً تدفـّق منـه معـينُ أدب راقٍ ، مـا عُـرف اليوم بأدب المقاومة و إلی كشف مظاهر هذا الأدب يصبو هذا المقال !

۲- ولادته و نشأته

ولـد نـزار قبـانی فـی ۲۱ مـارس عـام ۱۹۲۳م فـی حـیّ (مئذنـة الـشحم) بدمـشق (أبو علی، نبيل خالد، ۱۹۹۹م، ص۱۱).

لأسـرة ميـسورة الحـال، كـان أبـوه توفيـق قبـانی هوصـاحب محـلّ لـصناعة الحلويـات و قـد شـارک فـی مقاومـة الإنتـداب الفرنـسی علـی سـوريا، رزق «توفيـق قبـانی» بـالمولود الثـانی مـن زوجتـه «فـائزة» فـی الحـادی والعـشرين مـن مـارس ۱۹۲۳م. الفرحة غمـرت البيـت و كـان الأب و الأم قـد شـعرا بـأنّ هـذا المولـود بالـذات سيكون ذا شأن، و اختير له اسم «نزار» (أبوالسعود، صلاح، ۲۰۰۳م، ص۷).

فأهم مـا ورثـه نـزارعن أبيـه، إضـافة إلـی الملامـح الظـاهرة هـی الازدواجيـة فـی شخصية والده لأنّه كان يجمع بين صـنع الحلـوى و صـنع الثـورة كمـا قـال نـزار المعجـب بتلک الازدواجية التی انتقلت إليـه و إلـی شـعره. و قـد تحـدّث نـزار عـن والـده توفيـق القبانی بكلّ فخر و اعزاز قائلاً :

«شارک والـدی مـشاركة فعّالـة بوقتـه و مالـه فـی أعمـال المقاومـة ضـدّ الانتـداب الفرنسی علی سـورية، و كانـت دارنـا فـی الثلاثينـات مركـزاً يمـارس فيـه الـسياسيون و الـسوريون نـشاطهم الثـورى، و يرسـمون خطـط المقاومـة، و يخطبـون فـی النـاس المجتمعين فی ساحة منزلـه الفـسيحة، و باختـصار كـان بيتنـا سـاحةً شـعبيةً للنـضال، و

كانت طفولتي الأولى في هذا المناخ الثوري. بيتنا كان من البيوت الدمشقية الوارفة الخضرة الدافقة الماء، و على هذا السرير الأخضر المغزول برائحة الورد الدمشقي و غناء العصافير نطقتُ كلماتي الأولى» (أبو علي، نبيل خالد، ۱۹۹۹م، ص۱۴).

ولكن يبدو تأثير هذا المناخ الثوري لم يكن تأثير بالغ الأهمية بل كان تأثيراً بطيئاً على شعر نزار السياسي لأنّ شعره السياسي لم يتفجّر عنده إلا بعد نكسة حزيران نظراً للأحداث التي واكبت حياة نزار قباني على مستوى العالم العربي، و لا سيمّا القضية الفلسطنية. و يتحدّث نزارعن الصفات التي ورثها من أسرة أبيه عامّة و أبيه خاصة، و من ذلک قوله:

«في الحادية عشرة من عمرنا نصبح عاشقين، و في الثانية عشرة نسأم... من جديد... و في الحادية عشرة يصبح الطفل في أسرتنا شيخاً... و صاحب الطريقة في العشق. جدي كان هكذا... و أبي كان هكذا... كلّنا نعاني هذه الحساسية المفرطة أمام أشياء الجمال...» (المصدر نفسه، ۱۹۹۹م، ص۱۷).

و تبدوهذه الظاهرة البالغة لها تأثير مباشر على نزارلأنّه تغزل بالمرأة و عُرف بشاعر المرأة و شاعر الحبّ نظراً لتأثير الخلفيّة العائلية على نفسية الشاعر.

و أمّا أمّه التي يذكرها الشاعر بأنّها ينبوع حنان و عاطفة جياشة من الحب و الحنين فهي الّتي بحبّها و حنينها علّمته الحبّ و الحنين وهي تعتبر نزاراً ولدها المفضّل و تخصّه دون سائرأخوته بالطيّبات و تلبّي مطالبه. و في حبّ الوالدة و حنينها يقول نزار في ديوانه (الرسم بالكلمات) الذي صدرفي عام ۱۹۶۶م (خمس رسائل إلى أمّي) عندما كان في المرحلة الدبلوماسية حيث كان موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية السورية:

أيا أمّي ... أنا الوالد الذي أبحر...
و لازالت بخاطره
تعيش عروسه السكّر
فكيف... فكيف يا أُمّي
غدوت أباً ... و لم أكبر؟
مضى عامانِ يا أمّي

و لیل دمشق... فـُلّ دمشق...

دور دمشق...

تسکن فی خواطرنا (قبانی، نزار، ج۱، ۱۹۸۳م، ص۵۳۰)

نری هنا کیف یـصوّر نـزار حبّـه و حنینـه لأمّـه و حبّـه للـوطن الـذی صـار بعیـداً عنه فهو یأتی بمحبّـه الـوطن و الأمّ سواسـیةً فـالوطن هـو الأمّ الکبـری و هـو إن أصـبح دبلوماسـیاً فهـو لا یـزال یحـنّ إلـی أمّـه و یـذکر حنینهـاو عاطفتهـا فهـو مهمـا کبـر لا یتکبّر، و لا یزال طفلاً یحنّ و لا ینسی أمّه التی هی ینبوع من الحبّ.

ولکنّه ینکـر وجـود أیّ علاقـة مـشترکة بینـه و بـین أمّـه علـی الـصعید الفکـری إذ کانـت والدتـه تعتقـد اعتقـاداً صـارماً بمـا ذکـره و کـان یفـضّل تفکیرأبیـه الثـائّر. و فـی معرض المفاضلة بین تفکیر الأب و الأمّ یقول:

«بین تفکیر أبی الثـائر، و تفکیـر أمّـی الـسّفلی، نـشأت أنـا علـی أرض مـن النـار و الماء، کانت أمّـی مـاءً، و أبـی نـاراً، و کنـت بطبیعـة ترکیبـی أفـضّل نـار أبـی علـی مـاء أمّی...» (قبانی، نزار، ۱۹۷۳م، ص۲۵۶).

و فی التشکیل العائلی کان نـزار، الولـد الثـانی بـین أربعـة صـبیان و بنتـین (معتـز و رشید و هیفاء و وصال).

و «وصـال هـی الأخـت الکبـری لنـزار، و انتحـرت وصـال سـنة ۱۹۳۸م لأنّهـا لـم تستطع أن تتزوج من حبیبها» (المصدر نفسه، ۱۹۷۳م، ص۷۲).

و عندما قتلـت نفـسها تـرک موتهـا جرحـاً عمیقـاً فـی نفـس نـزار و یعـدّ انتحـار وصال هـو الـسبب الأساسـی مـن الأسـباب التـی فجّـرت للـشاعر شـاعریته و إحـساسه المرهف وجعلته یـصرخ فـی شـعر الحـبّ بکـل طاقاتـه و جوارحـه، و هـو یتـساءل عـن ذلک قائلاً:

«هل کانت کتاباتی عن الحبّ تعویـضاً لمـا حُرمَـتْ منـه أختـی، و هـو انتقامـاً لهـا مـن مجتمـع یـرفض الحـبّ و یطـارده بـالفؤوس و البنـادق»؟ (المـصدر نفـسه، ۱۹۷۳م، ص۷۲)

فهو یجیب عن السؤال الـّذی طرحـه حـول هـذه القـضیّة الهامّـة فـی واقـع حیاتـه قائلاً:

«إننی لا أؤکد هذا العمل النفسی و لا أنفیه ولکنّنی متأکّد من أنّ مصرع أختی العاشقة، کسر شیئاً فی داخلی... و ترک علی سطح بحیرة طفولتی أکثر من دائرة... أکثر من إشارة استفهام...» (المصدر نفسه، ۱۹۷۳م، ص۷۲).

أمّا عن حیاته الزوجیّة فتزوّج نزارمرتین، المرة الأولی من الإمرأة السوریة، «زهرة أقبیق» عام ۱۹۴۶م و أنجبا توفیقا و هدباء. و قد توفّی توفیق عندما کان فی السابعة عشرة من عمره أثناء إجراء عملیة جراحیة فی القلب فی لندن. أمّا هدباء فمتزوجة و مقیمة فی إحدی البلاد العربیة، و المرّة الثانیة تزوّج من السیدة العراقیة،«بلقیس الراوی»،عام ۱۹۷۰م وأنجبت منه، عمر و زینب وقد توفیّت بلقیس فی حادث انفجار السفارة العراقیة فی بیروت عام ۱۹۸۱م خلال الحرب الأهلیة فی لبنان فترک وفاتها أکبر الأثر فی نفسیته، ورثاها بقصیدة رائعة أعطاها عنوان اسم زوجته «بلقیس» و هی تُعَدُّ من روائع الشعر فی نهایات القرن العشرین (أبوعلی، نبیل خالد، ۱۹۹۹م، ص۱۳و ثابت، محمد و سمر الضوی، ۲۰۰۴م، ص۸).

فجّرت بلقیس قریحته و أحاسیسه کما صوّر فراقها و مقتلها فی هذه القصیدة حزناً و لوعة:

بلقیس ...
إنّ الحزن یثقبنی...
و بیروت التی قتلتک... لاتدری جریمتها
و بیروت التی عشقتک
تجهل أنّها قتلت عشیقتها
و أطفأت القمر (قبانی، نزار، ۱۹۸۲م، ص۲۸)

قال نزار عن مدی تأثیر بلقیس زوجته علی شخصیته و شعره:«بلقیس إمرأة تطابقت مع مقاییس الشعر. و هذا شیء نادر فی تاریخ النساء و فی تاریخ الشعر... تزوّجتنی و کانت تعرف أنّها تمسک الماء و النار فی قبضة یدها. و راهنت علی مصادقة وحش الشعر فی داخلی، و ربحت الرهان... و عاشت مع العاصفة فی غرفة واحدة ... إنّ الحیاة مع شاعر، هی بکلّ تأکید عمل انتحاری» (قبانی، نزار، ۱۹۹۰م، ص۲۵۳).

نعم ها هی بلقیس التی تغنّی بها الشاعر و قد أخذت منه مأخذاً کبیراً بصفاتها و کمالها المحبب عند نزار.

۳- نشأته الدراسية

تلقّی نزار تعليمه الابتدائی و الثانوی فی الكلية العلمية الوطنية بدمشق و كان النظام التعليمی حينذاک تحت رقابة الفرنسيين. انتهجت هذه المدرسة للمتعلمين منهجاً حديثاً فی التدريس و اتّخذت اللّغة الفرنسية فيها هی اللّغة الثانية و كذلک كانت الكتب الدراسية. كما وفد أساتذة هذه المدرسة من فرنسة. أثرت هذه الدراسة على أدب الشاعر تأثيراً جلياً، ذلک لأنّه نهل فی بدايات حياته العلمية من ينابيع الأدب الفرنسی و قرأ لأدبائها، و بذلک تعرّف على الفكر الأدبی الأوروبی و ثقافته (قبانی، نزار، ۱۹۸۶م، صص۴۰-۴۱).

نال نزارقبانی شهادة الثانوية فی هذه المدرسة ، ثمّ التحق بكلية الحقوق فی جامعة دمشق عام ۱۹۴۵م. و السّنة ذاتها دخل وزارة الخارجية و تولّی عدداً من المناصب، فعمل فيما بعد فی بلدان مختلفة، أدّی عمله فی السلک الدبلوماسی إلى اتساع نطاق أفكاره و ثقافته و اطلاعه على الحضارة الأوروبية الجديدة و آدابها (أبو علی، نبيل خالد، ۱۹۹۹م، صص۱۳و ۱۴).

۴- وفاته

توفّی نزارقبانی يوم الخميس الموافق ۱۹۹۸/۴/۳۰م فی لندن و نقل جثمانه، حسب وصيته، ليدفن فی مقبرة الأهل فی دمشق، لأنّ دمشق كما يقول فی وصيته: «هی الرّحم الذی علّمنی الشعر وعلّمنی الإبداع، وأهدانی أبجدية الياسمين... وهكذا يعود الطائر إلى بيته و الطفل إلى صدر أمه» (صحيفة القدس، الصفحة الثانية عشرة، الجمعة ۱۹۹۸/۵/۱م). (ثابت، محمد، ۲۰۰۴م، ص۸ و الخوری، جوزيف، ۱۹۹۸م، ص۲۴).

۵- أدبه

أصدر نزارقبانی نحو (۳۵) مجموعة شعرية، ترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية. فمن دواوينه الشعرية:

قالت لی السمراء(۱۹۴۴م)، طفولة نهد(۱۹۴۸م)، سامبا(۱۹۴۹م)، أنت لی(۱۹۵۰م)، قصائد(۱۹۵۶م)، حبيبتی(۱۹۶۱م)، الرسم بالكلمات (۱۹۶۶م)، يوميات إمرأة لا مبالية (۱۹۶۸م)، قصائد متوحشة(۱۹۷۰م)، كتاب الحبّ(۱۹۷۰م)،

مئة رسالة حبّ(۱۹۷۰م)، أشعار خارجة على القانون(۱۹۷۲م)، أحبک أحبک و البقیة تأتی(۱۹۷۸م)، إلی بیروت الأنثی مع حبّی(۱۹۷۸م)، کل عام و أنت حبیبتی(۱۹۷۸م)، أشهد أن لا إمرأة إلاّ أنت (۱۹۷۹م)، هکذا کتب تأریخ النساء(۱۹۸۱م)، قاموس العاشقین(۱۹۸۱م)، قصیدة بلقیس (۱۹۸۲م)، الحب لا یقف علی الضوء الأحمر(۱۹۸۵م)، أشعار المجنونة(۱۹۸۵م)، قصائد مغضوب علیها(۱۹۸۹م)، سیبقی الحب سیدی(۱۹۸۷م)، تزوجتک أیتها الحریة(۱۹۸۸م)، ثلاثیة أطفال الحجارة(۱۹۸۸م)، الأوراق السریة لعاشق قرمطی(۱۹۸۸م)، الکبریت فی یدی و دویلاتکم من ورق(۱۹۸۹م)، لا غالب إلا الحب(۱۹۹۰م)، هل تسمعین صهیل أحزانی(۱۹۹۱م)، هوامش علی دفتر الهزیمة(۱۹۹۱م)، الشعر قندیل أخضر، فتح، هوامش علی دفتر النکسة، إفادة فی محکمة الشعر، منشورات فدائیة علی جدران إسرائیل، أوراق خطیرة، لا، أحلی قصائدی، الخطاب: حوار مع أعرابی أضاع فرسه، ترصیع بالذهب علی سیف دمشقی، الأعمال الشعریة الکاملة «مجلّدان»، الأعمال السیاسیة الکاملة، یومیات مدینة کان اسمها بیروت، قصیدة مایا (الجبوری، سلمان کامل، ۲۰۰۲م، صص ۳۰و ۳۱).

و للشاعر أیضاً مؤلفات کثیرة. منها: شعراء الأرض المحتلة، عن الشعر و الجنس و الثورة، الکتابة عمل انقلابی، مقالات«شیء من النثر، المرأة فی شعری و حیاتی، ما هو الشعر، العصافیر لاتطلب تأشیرة دخول، الکلمات لاتعرف الغضب، مختارات نثریة «جمهوریة جنونستان»، مسرحیة«لعبت بإتقان وهاهی مفاتیحی»، حوارات«قصتی مع الشعر»، السیرة الذاتیة لسیّاف عربی، فی السیرة الذاتیة نزار قبانی... شاعر لکل الأجیال» (المصدر نفسه، ۲۰۰۲م، ص۳۱).

۶- مظاهر أدب المقاومة عند نزار

۱-۶- الوطن

إنّ الوطن یبقی فی وجدان کلّ شاعر و ضمیره، فالوطن یمثّل للشاعر غایة الحبّ، فکثیراً ما تغنّی الشاعر بحب وطنه لأنّه بینه و مأواه بل هو الکیان الأمثل

الّذی یجب علی أبناء الأمة أن یتفانوا دونه فهو هویّة الشعب و ماضیه و حاضره و مستقبله.

فنجد نزار یعبّر عن هذا الحبّ بأرقّ الکلمات و أعذب الألحان حاملاً أنشودة الوطن رایةً للأجیال:

عندما أشرب الکأس الأولی
أرسم الوطن دمعة خضراء
و أقلع ثیابی
و أستحمّ فیها
عندما أشرب الکأس الثانیة
أرسم الوطن علی شکل إمرأة جمیلة
و أشنق نفسی بین نهدیها
و عندما أشرب الکأس الثالثة
أرسم الوطن علی شکل سجن
أرسم الوطن علی شکل مشنقة
تتدلّی منها قصائدی فی احتفال مهیب

(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص ۱۲۱-۱۲۵)

کان نزار وطنیّاً و حدودیاً قومیّاً وصل حبّه للوطن إلی درجة العشق و قد کانت کل قصائده نضالیة، هی ملاحم عشق لهذا الوطن و الوطن عند نزار هو الحبیبة و الحبیبة عند نزار هی الوطن کلاهما الحب و العشق و الحضن و الحنان و الأمان و السند (تاج الدین، أحمد، ۲۰۰۰م، ص۷۵).

۲-۶- فلسطین

أمّا القضیة الفلسطینیة فتبقی الرمز، فکلّ شاعر داعب الکلمات و صنع الشعر لاینسی هذه القضیة فما بالک لو کان عملاقاً کنزار فهو شاعر هذه القضیة و لا تفارق خیاله فهی محفورة فی أعماق وجدانه فهی الجرح و الخنجر و هی أمّ القضایا العربیة فکم تغنّی هذا الشاعر بفلسطین.

و کـأن کلمـات الـشاعر تقاتـل فـوق الأراضـی الفلـسطینیة لتـسترجع الأرض المغـصوبة بـلاد الزیتـون و البرتقـال و بـلاد المـسجد الأقـصی و القبلـة الأولـی و القـدس الحبیبة.

یا فلسطین لا تزالین عطشی
و علی النفط نامت الصحراء
یا فلسطین لا تنادی علیهم
قد تساوی الأموات و الأحیاء
قتل النفط ما بهم من سجایا
و لقد یقتل الثری الثراء
یا فلسطین لا تنادی قریشاً
فقریش ماتت بها الخیلاءُ
لا تنادی لم یبق إلا النساء
کم أعانی مما کتبت عذاباً
و یعانة فی شرقنا الشرفاء

(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۴۰۵-۴۰۹)

هذه القصیدة (إفادة فـی محکمـة الـشعر) الـّتی ألقاهـا فـی مهرجـان الـشعر التاسـع ببغداد فی نیسان من عام ۱۹۶۸م.

«تظهـر فلـسطیین مخـضبة بـدمائها و العـرب یتبـاحثون فـی القـشور. و یـأتون کـلّ علم لیلقوا الشعر و قد استوت مکانة ذلک الـشعر بمکانـة الحـذاء عنـد نـزار و کـل ذلـک و فلسطین تنتظـر الفرسـان العـرب لیعیـدوها إلـی أحـضان الـوطن العربـی و نـزار یعـانی بسبب التزامه بالوطن و حبّه و إخلاصه له» (دهان، میرفت، ۲۰۰۲م، ص۹۰).

۳-۶- القدس

أما أکثر المدن الفلسطینیة التـی تغنـی بهـا الـشعراء، فهـی القـدس، لأنّهـا رمـز للأمّـة الإسلامیة فکثیراً ما حزن الـشعراء لهـذه المدینـة، و لمـا حـلّ بهـا مـن قبـل عـدوّ الأمّـة الإسـلامیة إسـرائیل مـن آهـات و ویـلات فنجـد نـزاراً یبکـی هـذه المدینـة لوعـةً و جزعاً فی قصیدته قائلاً:

بکیت حتّی انتهت الدموع
صلّیت حتّی ذابت الشموع
رکعت حتّی ملّنی الرکوع
یا قدس یا مدینة تفوح أنبیاء
یا قدس یا مدینة الأحزان
یا دمعة کبیرة تجول فی الأجفان
من یوقف العدوان
علیک یا لؤلؤ الأدیان
من یغسل الدماء عن حجارة الجدران
یا قدس یا حبیبتی
غداً غداً سیزهر اللّیمون
و تفرح السنابل الخضراء و الغصون
(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۱۶۱-۱۶۴)

ها هی الکلمات تعبّر عمّا فی ضمیر الشاعر من حُزن تجاه هذه المدینة المقدّسة التی هی القبلة الأولی للمسلمین و هی مدینة المعراج ولکنّه رغم حزنه و الدموع التی باتت تنتهی لغزارتها، فالشاعر له أملٌ فی الغد فسوف تفرح القدس بانتهاء العدوان.

«و نراه یرکع و یصلّی و یبکی علی أعتاب القدس المدینة الجلیلة و قد أحتلها الیهود و راحوا یضعون بصماتهم الصهیونیة علی مقدساتها و انتهکوا حرمة المسجد الأقصی. فالقدس هی المدینة التی اجتمع فیها الأنبیاء، مسجد ها هو المسجد الذی صلّی فیه الأنبیاء. و یتساءل نزار عمن سیعید السنابل الخضراء و الغصون» (دهان، میرفت، ۲۰۰۲م، صص۹۲-۹۳).

فالقدس أصبحت رمزاً فهی مدینة الشموخ والکبریاء فهی تصمد أمام التحدّی و تقاوم الاحتلال و وقفت ضد الظلم و العدوان وحول ارتباط هذه المدینة بالأدیان و رحلة المعراج جاء:

«بسبب الإلهام و العطف الإلهی و التجلّی فی سیرة نبویة خالدة شکّلت نقطة الإعجاز فی مسار الإسلام» (حسین، یسر، ۲۰۰۳م، ص۱۳۵).

۴-۶- الالتزام القومی و حبّ البلاد العربیة

و من البلاد العربیة التی تغنّی بها نزار لبنان لما حلّ بها من دمار إثر التدخل الأمریکی لمساعدة إسرائیل و سکوت المجامع العربیة إزاء ذلک فلم تسمع سوی التنديد من قبل هذه المجامع و الحکام العرب المتآمرین مع العدو، و المؤتمرات العربیة لا جدوی منها فحبّ هذه الدیار شغف قلب الشاعر و التهاون العربی قائما علی أکفان خرائب هذه البلاد فنجد نزار قائلاً:

جمیعهم موتی و لم یبق سوی لبنان
یلبس فی کلّ صباح کفنا
و یشعل الجنوب إصراراً و عنفوان
جمیعهم قد دخلوا حُجورهم
و استمتعوا بالسمک و النساء و الریحان
جمیعهم مدجَّن مروّض منافق مزدوج جبان
و وحده لبنان
یصفع أمریکا بلا هوادة
و یشعل المیاه و الشطآن
فی حین ألف حاکم مُؤمَرک
یأخذها بالصدر و الأحضان
هل ممکن أن یقعد الإنسان دائماً مع الهَوَان
الله یا زمان

(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۹م، ص۳۰)

۵-۶- بیروت

فکما هتف الشعراء لفلسطین و القدس هتفوا أیضاً للبنان و لبیروت و راحت الکلمات تداعب الألحان و الموسیقی لتصنع کلاماً جمیلاً لحب هذه المدینة و

تصرخ بأعلی صوتها لقتل الناس الأبریاء فیتساءل نزار أین العرب لمَ السکوت قبل هذه الجریمة و الذبح؟

بیروت أرملة العروبة
و الحواجز
و الجریمة و الجنون
بیروت تذبح فی سریر زفافها
و الناس حول سریرها متفرجون
فأین فرّ العاشقون
ولکن الجمیع منافقون
تتوسل الأشجار باکیة معی
أرأیتم شجراً یفکر بالهروب
هذا هو الزمن... الفضائح و الخیانة و الذنوب

(المصدر نفسه، ج۶، ۱۹۹۹م، صص ۸۵ و ۸۶)

فنزار یصوّر بیروت علی شکل إمرأة جمیلة فی ثیاب العُرس ولکن تُذبَح و عشاق هذه الحبیبة یتخلون عنها.

«کان الثأر... لنزارعند العرب وهومقتل الآمنین و الأبریاء العزّل من السلاح والعرب یتفرجون علی بیروت التی تذبح و تغتصب و لا تثور لهم کرامة و لا یتحرک کبریاء» (تاج الدین، أحمد، ۲۰۰۰م، ص۸۶).

۶-۶- بلاد الماضی المجید

ذکر نزار الماضی المجید و الحاضر الملیء بالظلم و انتهاک الحقوق و عدم الاهتمام بالشعوب قائلاً :

ما هذه مصر فإن صلاتها
عبریّة و إمامها کذاب
ما هذه مصر فإن سماءها
صغرت و إن نساءَها أسلاب
إن جاء کافور فکم من حاکم

قهر الشعوب و تاجُهُ قیقاب

(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۸م، صص ۶۴۴- ۶۴۵)

فنـزار یتـساءل عـن ماضـی هـذا البلـد العریـق أیـن تلـک الحـضارة و الماضـی المجید فیربط الماضـی بالحاضـر الـذی انتـشر فیـه الظلـم و حکمـت مـصر سلـسلة مـن الطغاة و عبثت بالماضی العریق و التأریخ المجید و حقوق أبناء هذا الشعب.

«تأریخ شعب یحـاول تزویـره کـافور هـذا الزمـان الـذی جـوّر فیـه فیواصـل نـزار قبـانی هجـاءه لحـاکم مـصر فبـرأی الـشاعر أخطـأ بحـق مـصر الـشعب و التـأریخ». (فقیه، یونس أحمد، ۱۹۹۸م، ص ۱۵)

۷-۶- الحاکم و الشعب

و عن علاقة الحاکم بالشعب فی الـبلاد العربیـة و عـن هـذا الواقـع المریـر مـن نظـرة الحاکم للشعب نجد نـزار قبـانی یعبّـر عـن هـذه العلاقـة بـسخریة مریـرة و أسـلوب لاذع کمـا خاطـب نـزار الـشعب مـن لـسان الحـاکم و وصـفه بالـدجاج و مـا هـو إلاّ لأنّـه لا یمثّل له شیئاً قط.

نحن دجاج القصر
نأکل قمح الخوف
و نشرب من أمطار الملح
کل نهار
یأتینا البولیس قبیل صلاة الصبح
یهددنا
و یعلـّقنا
بین السیف و بین الرمح
نحن دجاج القصر
یعلفنا فی فصل الصیف
و یذبحنا فی عید عید الفصح

(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۹م، ص۲۹۸)

«یحجم نزار المأساة و یحددها فهی ببساطة العلاقة الغیر المتکافئة بین الحاکم و المحکومین بین آلهة و عبید بن صاحب القصر و المواشی التی تربی فی قصره یعلفها و یسمنها لکی یذبحها فیأکل لحمها و یستفید من جلدها و فرائها بل أحیاناً یصوّرتلک الجماهیر بأنّها أقلّ شأناً من الماشیة فهم مجرد دجاج و حین یتّحدث هنا عن الفوارق الطبقیة بین الحکام و المحکومین مستعرضاً صورة بشعة من صور القمع من خلال رجال البولیس و ما تمثّله کلمة بولیس عند القارئ العربی من خلیفة غیر مستحبة، هذه الفوارق الطبقیة لها جوانب متعدّدة، فوارق من المستوی المعیشی و التخویف و التجویع هؤلاء الحکّام الطغاة انعزلوا عن الشعب و عاشوا فی طبقة مرفهة متعالیة بینما الجماهیر مظلومة و محرومة» (فقیه، یونس أحمد، ۱۹۹۸م، ص ۱۳۰).

۸-۶- الحاکم العربی و القضیة الفلسطینیة

فکما رسم الشاعر صورة الحاکم مع أبناء شعبه رسم صورته أمام القضیة الفلسطینیة و بیّن الشاعر الحاکم العربی أمام الشعب العربی. فنجد نزار قبانی عندما یصدر قصیدته (الحب و البترول) عام ۱۹۵۸م.

«أعلن فیها الحرب علی الحکام العرب و جعلهم الشماعة التی وضع علیها الأخطاء و القصیدة تحتوی علی هجوم شدید و هجاء لاذع للذین یهدرون الثروات العربیة علی الغوانی و الملذات و ینامون عن نصرة قضایا النضال العربی» (تاج الدین، أحمد، ۲۰۰۰م، صص ۲۸ و ۲۹).

تمرغ یا أمیر النفط فوق و حول لذاتک
کممسحة تمرغ فی ضلالاتک
لک البترول فاعصره علی قدمی خلیلاتک
کهوف اللیل فی باریس قد قتلت مروءاتک
علی أقدام مومسة هناک
دفنت ثاراتک
فبعت القدس بعت الله
بعت رماد أمواتک

كأن حراب إسرائيل لم تجهض شقيقاتک
و لم تهدم منازلنا و لم تحرق مصاحفنا
تغوص القدس فی دمها
و أنت صريع شهواتک
تنام كأنما المأساة ليست بعض مأساتک
متی تفهم
(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص ۶۶ و ۶۷)

۹-۶- أبناء الحجارة

اتـّجه نـزار إلـی أطفـال الحجـارة الـذين انـشقوا مـن الـصخور ليحـاربوا إسـرائيل بحجـارتهم الـصغيرة و ذلـک بعـد أن اتـّجه إلـيهم فـی أواسـط الخمـسينات و علـق الآمال عليهم ليستعيدوا الأرض و الكرامة العربية فی قصيدة (راشيل شوار زنبرغ).

يطالـب نـزار الـصغارأن يثـأروا مـن اليهـود الـذين ارتكبـوا أبـشع المـذابح و الانتهاكـات فـی حـق الـشعب الفلـسطينی فقـد سـلبوا و ذبحـوا و يتـّموا الأطفـال فهـم صنعوا وطناً جديداً و قلبوا أوراق التاريخ
بهروا الدنيا
و ما فی يديهم إلاّ الحجارة
قاموا
و انفجروا
و استشهدوا
(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۹م، ص ۲۰۳)

و كما قال أيضاً :
يرمی حجراً
أو حجرين
يقطع أفعی إسرائيل إلی نصفين
من هو
هذا الولد الزارع

قمح الثورة
فی کل مکان
تسأل صحف العالم
کیف صبی مثل الوردة
یمحوا العالم بالممحاة
(المصدر نفسه، ج۳، ۱۹۸۱م، ص ۱۰۳)

«أطفال الحجارة المساکین یسقطون جرحی یسقون الأرض بدمائهم و یحملون نور الفجر فی عیونهم هؤلاء الأطفال الشیاطین بأفعالهم الملائکة بطهرهم و عزیمتهم أبنیاء الفرح الذین یستخرجون الفلسطین من رحم الأحزان» (دهان، میرفت، ۲۰۰۲م، ص۱۰۸).

۱۰-۶- الطفل العربی أمل المستقبل

کما هتف نزار للطفل الفلسطنی بصورة خاصة لم ینس الطفل العربی بصورة عامة فهو یری فی هؤلاء صغار الیوم کبارالغد، الأمل الذی فقده العربی منذ زمان فهو یصرخ للصغار علی مختلف الأعمار و ینبههم أنّ قضیتهم هی قضیة الأرض. والأمل العربی الوحید الطفل العربی أمل المستقبل لیصنعوا البطولات و یمحوا ما صنعه الکبار من خیبة أمل و ضیاع للأراضی لیحسوا ما قیمة التراب و ما هو الوطن.

أکتب للصغار
للعرب الصغار حیث یوجدون
لهم علی اختلاف اللون
و الأعمار و العیون
و لیذکر الصغار
حکایة الأرض التی ضیعها الکبار
فلیذکر الصغار حیث یوجدون
من ولدوا منهم و من سیولدون
ما قیمة التراب

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

لأن فی انتظارهم
معرکة التراب
(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۲۷-۳۸)

و لأنَّ الکبار هم الذین أضاعوا القضیة و فرطوا فی الوطن فهو یعقد الآمال علی الأطفال الذین یصنعون المستقبل المشرق الباسم والغد النظیف البریء من کل آثام الماضی.

نلاحظ أنّ الشاعر هنا یعلّق علی الانتقام لکل الخطایا و أخطاء الکبارو یظل نزار حتّی النزع الأخیر مؤمناً بالأطفال بالجیل الذی یصنع من الیأس أملاً من الظلام فجراً لعصرجدید(تاج الدین، أحمد، ۲۰۰۰م، صص ۱۸۹ و ۱۹۰).

فالأمل عند نزار فی الطفل العربی مازال باقیاً فهو مؤمن بقدرات الطفل العربی صانع المعجزات کیف سیخذل العدوأمام صمودالطفل العربی ولا أحد یستهان بهذه القدرات.

«سیصیرأجساد أطفال العرب جمیعاً رؤساً نوویة سینقلب السحر علی الساحر و ما أحداً یستهین بقوی الشعب» (نعسان آغا، ر یاض، بلاتا، ص۱۶۸).

۱۱-۶- الاستخبارات و الاستجواب

لم یختف هذا الجانب عن رؤیة الشاعر نزار قبانی فیحاول کشف هذه الأمور للقارئ و لأبناء شعبه و أمّته فی قصیدة الخطاب.

أوقفونی
و أنا أضحک کالمجنون وحدی
من خطاب کان یلقیه أمیرالمؤمنین
کلفتنی ضحکتی عشر سنین
سألونی
و أنا فی غرفة التحقیق، عمن حرّضونی
کنت بعدالظهر فی المقهی
وکان البهلوان
یلبس الطرطور بالرأس

و یلقی کل (ما یطلبه المستمعون)

(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۲۶۱-۲۶۵)

یکشف الشاعر هنا عن الاعتقالات و الاستجوابات بسبب تُهم أو تقاریر واهیة و حال المواطن العربی فی غرف التحقیق و لا ینسی الشاعر أسلوبه الساخر فهو یعبّر عن الخطب التی یلقها الحکام بما یطلبه المستمعون من الأغانی مستخفاً بها و یعبّر عن الحکام بالبهلوان الذی یلبس الطرطور و یضحّک الناس.

«یصوّر الشاعر اعتقاله و استجوابه لأنّه ضحک من خطاب أمیرالمؤمنین و نزار یرید أن یصوّر حال الشعب و حال الحکام فالحاکم العربی بارع فی إلقاء الخطب الهوائیة و علی أفراد الشعب الاستماع و الإصغاء و إلا کان الاعتقال و التعذیب هو النتیجة و هو یصوّر کلّ ذلک لقطة وراء لقلطة حتّی تکتمل لنا الصورة التی یرید أن نراها و هی الفساد و الظلم» (دهان، میرفت، ۲۰۰۲م، ص۲۲۱).

۱۲-۶- الحریة و النضال

و من القضایا التی اهتم بها الشاعر هی الحریة، الحریة التی لا یصل فرد أو مجتمع الاّ من خلال نضال طویل و عناء کبیر فیصل الشاعر فی النهایة إلی أنّ طریق الحریة هو السلاح فهو وحده الذی یحرّر الشعب من الظلم و هو وحده صانع الحق فیهتف نزار للحریة التی یأخذها السلاح و یستردها بالقوة.

أرید بندقیة
خاتم أمّی بعته
من أجل بندقیة
محفظتی رهنتها
من أجل بندقیة
أصبح عندی الان بندقیة

(قبانی، نزار، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۳۲۷-۳۲۸)

کان الجمیع یؤمن و یدرک أن الطریق إلی التحریر هو السلاح الذی اتخذه الشاعر رمزاً له کلمة البندقیة، أرید بندقیة من أجل تلک الأمنیة الغالیة والمطلب الغالی بعتُ الغوالی والأشیاء الثمینة خاتم أمّی و محفظتی رهنتها حتّی أوراقی الغالیة

من أجل ما هو أغلی(الآن) و هـو البندقیـة التـی یتـضاءل أمامهـا کـل تراثنـا مـن أدب و کتب و شعر (خورشا، صادق،۱۳۸۱هـش، ص ۲۰۱).

بعد أن هتف الشاعر للحریـة التـی لا تـأتی الاّ عـن طریـق الـسلاح یحـرّض النـاس إلی الثورة ضد الظلم و صار یـشکو سـکوت الـشعب فهـو ینظـر و یغـضّ النظـر عـن مـا یجری حوله مما دفع الشاعر إلی الصراخ فی هذا المجال.

لماذا الجماهیر
بین المحیط و بین الخلیج
تجوب الأزقة بالقطط الخائفة
و أین هو الشارع العربی
الذی کان یمضغ لحم الطغاة
و یخترع العاصفة
فأین هو الشارع العربی
الذی کان یصبق نارا
و لا یعرف الفرق بین القصیدة و القنبلة
(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۹م، صص۲۵۷-۲۶۰)

لقـد سـئم نـزار مـن الـسکوت و الـصمت الـذی یلـف الأراضـی العربیـة رغـم کـلّ المعاناة و کلّ المآسی التـی تمـلأ الـساحات العربیـة لقـد أصـبح انعـدام الاحـساس شـیئاً طبیعیـاً و عادیـاً حتّـی تحجّـرت القلـوب والمـشاعر فالـشارع العربـی هوالـذی أشـعل الأراضـی العربیـة نـاراً وهوالـذی حـشد العـرب صـفاً واحـداً (تـاج الـدین، أحمـد، ۲۰۰۰م، ص۷۷).

۱۳-۶- الهیمنة الأمریکیة

أمریکـا فـی الآونـة الأخیـرة سـیطرت علـی العـالم بـصورة عامـة و ازدادت سیطرتها و نفوذها فی العالم العربی فنـزار یـصرّح أنّ مـا یجـری فـی الـساحة العربیـة هـو مخطط أمریکی صهیونی فما یجری فی البلاد العربیة هو صنع ید أمریکا.

کان نصف المهـر بالدولار
کان الخـاتم الماسـی بـالدولار

و الكعكة كانت هبة من أمريكا
وغطا العرس و الأزهار و الشمع
كلها قد صُنعت فی أمريكا
(المصدر نفسه، ۲۰۰۰م، ص۶۷)

كان أهم ما لفت نظر نزار الحضور الأمريكی و الضغط الأمريكی بل و الهيمنة الأمريكية التی صبغت كل شیء بصبغتها (المصدر نفسه، ۲۰۰۰م، ص۶۷).

۱۴-۶- عدم حرية الرأی

فقد ارتفع صوت الشاعر لعدم وجود حرية الرأی بصورة خاصة، صرخ لعدم وجود الحريّة بصورة عامة فی الوطن العربی فقال:

يا سائلی عن حاجتی
الحمدلله علی الصحة و الرغيف
و ما تقول الصحف اليومية
عندی صغار يملأون البيت
و زوجته وفية
لكنّما مشكلتی
ليست مع الخبز الذی آكله
و لامع الماء الذی أشربه
مشكلتی الأولی هی الحرية
(قبانی، نزار، ج۶، ۱۹۹۹م، ص۲۰۲)

فهنا الشاعر يصرّحُ أنّ المشكلة فی الوطن العربی ليست الأكل أو الشرب فهو متوفر ولكن المشكلة الفرد فی الوطن العربی عدم الحرية بأنواعها.

و أيضاً قال:

أتجوّل فی الوطن العربی
لأقرأ شعری للجمهور
فأنا مقتنع
أن الشعر رغيف يخبز للجمهور

يرمينى العسكر للعسكر
و أنا لاأحمل فى جيبى إلاّ عصفور
لكن الضابط يوقفنى
و يريد جوازاً للعصفور
تحتاج الكلمة فى وطنى
لجواز مرور
(المصدر نفسه، ج۳، ۱۹۹۹م، صص۲۴۳-۲۴۴)

نجد الشاعر يشكو من هذا الوضع فى البلاد العربية فتحتاج حكمة الشاعر كى تصل إلى القارى إلى الجوازات و إذن من قبل السلطات فالشاعر يشكو و يتألّم لعدم حرية الرأى فى البلاد العربية و على السيطرة الإعلامية من قبل الحكومات و الضغط الإعلامى فهو ينادى بحرية الفكر و ينتقد عدمها فهذه حقيقة ما يجرى فى البلاد العربية.

فإذا كان الناس يعيشون فى أجواء مليئة بالخوف و سيطرة من قبل حكّام شرسين لا يعرفون فى تعاملهم مع أبناء الشعب غير لغة الإجرام و الإعدام فلا جدوى من مطالبة الحرية بالرأى بل السبيل الوحيد هو الإطالة بنظام الحكم.

نزار الذى خرج من شرنقة الظلم و القهر و سافر إلى معظم دول العالم و تنسّم الهواء و عاش الحرية فى كلّ دول العالم آمن بالحرية و تعبّد فى محرابها كرسى حياته يتغنى بها و يطالب بها للشعوب العربية التى حرمت منها رغم أنها ضحت فى سبيلها بملايين الضحايا و الشهداء فالشاعر يتّكئ على الحرية و المعنى المفقود فليست مشكله الشعب الخبز و الماء رغم أنه يعيش على الكفاف بل إنّ المشكلة التى يبحث عنها هى الحرية رغم ذلک فإنّ الحكام تصيبهم حساسية من تلک الكلمة و يعتقدون أن الشعوب عقولها فى معدتها. (تاج الدين، أحمد ، ۲۰۰۰م، ص۸۵)

فنزار يهتم بالشعب و مشاكله فهو يطالب حكّام العرب بالحرية للشعوب التى اضطهدت خلال مسيرتها فى هذا الوطن الكبير فمن حق الناس والشعوب أن تتمتّع بالحرية.

۷- النتیجة

یمکننا أن نلخّص نتایج هذا البحث کمایلی:

- کان نزار قبّانی بدایة الأمر شاعر الحبّ و الغزل و المرأة و ذلک معروف فی الادب العربی المعاصر.
- تحوّل شعر نزار قبّانی فی مرحلة حامّة من حیاته و اتّخذ الحریة و النّضال من أجلها دینه و مذهبه، حیثُ صارَ شاعراً ثوریاً یواجه الظلم و الاحتلال الصهیونی المسیطر علی أرض فلسطین المقدمة.
- شعر نزار قبّانی المقاوم، مظهر من أسمی و أعلی مظاهر شعر المقاومة فی الادب العربّی المعاصر.
- یعبر نزار قبّانی فی أناشیده المقاومیّة عن آراءه السیاسیة و التاریخیّة تجاه قضایا الامّة الاسلامیة و العربیة. و بذلک یعدّمن أرکان الشعر المقاوم و من الشعراء الذین قاموا بمواجهة الاستعمار مطافحین الکیان الصهیونی و ذلک متبلور فی قسم هامّ مِن أشعاره.

المصادر

۱. أبو علی، نبیل خالد: نزار قبانی شاعر المرأة و السیاسة، مکتبة مدبولی، ۱۹۹۹م.
۲. تاج الدین، أحمد: نزار قبانی والشعرالسیاسی، دارالثقافة للنشر، القاهرة، ۲۰۰۰م، ۱۴۲۱هـ ق.
۳. الجبوری، کامل سلمان: معجم الشعراء فی العصر الجاهلی حتی سنة ۲۰۰۲م، دار الکتب العلمیة، لبنان، بیروت، بلاتا.
۴. خورشا، صادق: مجانی الشعر العربی الحدیث و مدارسه، دفتر نشر و فرهنگ إسلامی، ۱۳۸۱ هـ . ش.
۵. الخوری، جوزیف: نزار قبّانی ثورة وحریة، دارنوبیلیس الأشرفیة، لبنان، بیروت، ۱۹۹۸م.
۶. دهان، میرفت: نزار قبانی و القضیة الفلسطینیة، بیان للنشر و التوزیع و الاعلام، ۲۰۰۲م.
۷. شکیب انصاری، محمود: تطورالأدب العربی المعاصر،انتشارات دانشگاه شهیدچمران، ایران، أهواز، ۱۳۷۶هـ . ش.
۸. الفاخوری، حنّا: الجامع فی تاریخ الأدب العربی، العصرالحدیث، منشورات ذوی القربی، بلاتا.
۹. فقیه، یونس أحمد: ملامح الالتزام القومی فی شعرنزارقبانی، دار برکات للطباعة و النشر و التوزیع، لبنان، بیروت،۱۹۹۸ م .
۱۰. قبانی، نزار: الأعمال السیاسیة الکاملة، منشورات نزار قبانی ، لبنان، بیروت، ط۳، ۱۹۸۳م.

۱۱. قبانی، نزار: الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قبانی، لبنان، بیروت، ط۱۴، ۱۹۹۸م.
۱۲. قبانی، نزار: تزوجتک ... أيتها الحرية، منشورات نزار قبانی، لبنان، بیروت، ط۲، ۱۹۹۰م.
۱۳. قبانی، نزار: قصتی مع الشعر، منشورات نزار قبانی، ۱۹۷۳م.
۱۴. قبانی، نزار: قصيدة بلقيس، منشورات نزار قبانی، لبنان، بیروت، ۱۹۸۲م.
۱۵. قبانی، نزار: لعبت باتقان وهاهی مفاتيحی، منشورات نزارقبانی، ۱۹۹۰م.
۱۶. قبانی، نزار: المرأة فی شعری و فی حياتی، منشورات نزارقبانی، ۱۹۷۵م.
۱۷. نعسان، آغا، ریاض: بین السياسة و الاعلام (دراسة و مقالات)، دار الفكر، لبنان، بیروت، بلاتا.
۱۸. یسر، حسین: آراء فی دفتر الأدب و الفن البحث عن الهوية، الدار المصرية اللبنانية، ۲۰۰۳م.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی